بحث موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها

للدكتور سليم عادل عبد الحق

المدير العام للآثار والمتاحف

تقوم مدينة حمص في رجء من أرجاء سهل العاصي الخصيب ، يمتد بين المنحدرات الجبلية اللبنانية ، ومنحدرات السلسلة الجبلية الداخلية ، وحيث تبدأ وهدة البقاع الموصلة إلى الجنوب ، وتنفتح وهدة طرابلس المؤدية إلى الساحل ، وتتفرع طريق تدمر التي تخترق بادية الشام . ولا بد أن يكون هذا الموقع الهام من سورية الوسطى ، قد استدرج إليه الإنسان السوري الاول منذ أقدم العصور ، وان لعب بماله من إمكانيات زراعية وتجارية وستراتيجية كبيرة دوراً هاماً في نشوء مجتمعات بلادنا البشرية الاولية .

إلا أنه ليس لدينا معلومات ثابتة عن مدينة حمص قبل العهد الروماني . وأول من ذكر اسمها القديم (إيمزا ، أو اميزا ، أو إيمسا Emèsa, Emèsa, Emèssa) كان المؤرخ الروماني المعروف (بلين القديم Pline. l'Ancien) في كتابه : التاريخ الطبيعي ، وكذلك فانه لم يظهر في أرض المدينة أو فيما يجاورها مباشرة من أراضٍ آثار ترقى إلى أقدم من الزمن المشار إليه . وذلك بسبب أن الابحاث والتحريات الاثرية لم تتوسع حتى الآن لتشمل نواة المدينة القديمة حيث قامت المنشآت البشرية المتعاقبة فوق بعضها

واستمر السكن فيها . مما جعل وصول الباحثين الأثريين إلى أولاها ، وتعرفهم عليها متعذرين(١) .

ويؤدي سكوت المصادر التاريخية ، وفقدان المعالم الاثرية الشرقية القديمة في أرض حمص إلى القول إنه إذا وجدت هذه المدينة قبل العهد الروماني فإنها لم تكن آنئذ على شيء كبير من الاهمية . ويمكن أن يعزى ذلك إلى أن الانسان السوري قام بتجربتين ناجحتين لإنشاء مدينة كبرى في تلك المنطقة قبل أن يركز جهوده لتشييدها في موقع حمص الحالي .

وفي الواقع جرت التجربة الاولى ، على بعد (١٨ كيلو متراً) إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص ، في وادٍ قليل الالتواءات من سهل العاصي يسمى بوادي الزورة ، على أحد فروع نهر العاصي الذي يحدث مستنقعاً صغيراً يروي ما يجاوره من أراضٍ .

وقد نشأت مدينة (قطنة) القديمة التي ورد ذكرها في هذا الموقع حيث تقوم قرية (المشرفة) الحالية . وكان العالم (رونزفال) أول من تعرف على أطلالها في المكان المذكور . وقام الكونت (دومنيل دو بويسون) بالتنقيب بحثاً عن منشآتها خلال أربع حملات أثرية بعد الحرب العالمية الاولى(١) وقد تأكد له مما وجد من آثار أن هذا الموقع قد سكن منذ العصر الموستري من الزمن الحجري المقطوع(٢) . وأمكنه أن يتعرف على أنقاض المدينة التي يرقى عهدها إلى أول الالف الثاني قبل الميلاد ، والتي كانت على شكل مربع طول ضلعه كيلو متر واحد ، وتحيطه أسوار كانت ترتفع (١٣ ـ ١٥ متراً) ، وينفذ إلى داخله عن طريق أبواب متعددة ، أهمها الباب الغربي الذي كان مبنيا من الاحجار الضخمة ، على شكل ينظم له عدة مداخل الواحد بعد الآخر ضمن تحصينات قوية .

ولوحظ أن سوية أرض المدينة الحالية داخل الاسوار قد ارتفعت عدة أمتار عن خارجها ، بسبب تراكم أنقاض المنازل التي كانت مكتظة ، والتي أمكن تقدير عدد سكانها القدماء بنحو

---

(١) يتحدث المرحوم الخوري عيسى أسعد في كتابه : (تاريخ حمص) ، أن منشأ هذه المدينة يعود الى نحو سنة (٢٣٠٠ ق . م) ، وان اسمها آنذاك كان (حماة صوبا) ، وأن سكانها القدماء كانوا من الأموريين والعمالقة الذين امتزجوا فيما بعد بالحثيين ، ونتمنى أن تتخذ هذه النظرية شكلا يقربها من الاكتشافات الاثرية والأبحاث التاريخية التي تظهر كل يوم في عصرنا هذا .

(٢) انظر كتاب : Comte du Mesnil du Buisson : Le site archéologique de Mishrifé—Qatna, Paris 1935 الذى أجمل فيه المؤلف تنقيباته في موقع المشرفة ، وكان قد نشرها في :

Les ruines d'El - Mishrifé au nord - est de Homs - Syria, tome VII, 1926. page 289

Les ruines d'El - Mishrifé au nord - est de Homs (Fmése (2e article) Syria, tome VIII, 1927, page 1,

L'ancienne Qatna ou les ruines d' El - Mishrifé au nord - est de Homs (Emèse). Deuxiéme campagne de fouilies (1927) (suite), Syria, tome IX, 1928, page 6 .

Compte rendu de la quatriéme campagne de fouilles à Mishrifé - Qatna, Syria tome XI, 1930, page149,

Le site archéologique de Mishrifé - Qatna , Syria, tome XVII, 1936, page 83 .

(٣٠ - ٥٠ الف نسمة) كانوا يتعاطون زراعة الحبوب وغرس الكروم وتعهد اشجار الزيتون ، وتجاراً يتصلون عن طريق بادية الشام ببلاد الرافدين ، ويقيمون العلاقات بينها وبين البحر الابيض المتوسط ، ويتأثرون بمدنيتها . ودلت التنقيبات التي جرت في المرتفع الطبيعي الواقع في نقطة متوسطة من أسوار المربع ، والمسمى بتل الكنيسة (لقيام كنيسة أرثوذكسية حالية عليه) على وجود عدد من الابنية بينها ، معبد للربة (نين - ايغال) السومرية التي كانت تعبد في مدينة (أور) الرافدية . وكان لهذا المعبد بابان شرقي وشمالي . وهو يتألف من باحة واسعة تحيط بها عدة قاعات ، بينها قاعة (قدس الأقداس) وقاعة الحجر الاسود (البيتيل) ، وقاعة (البحيرة المقدسة) . وقد وجدت في حفائر المعبد المذكور كؤوس برونزية وبعض التماثيل الحجرية ، ورقم فخارية مخطوطة باللغة الأكدية ، ومذكور في بعضها قوائم بالاشياء الثمينة التي كانت محفوظة في المعبد قديماً . وعرف من تعداد مفردات هذه الاشياء ، ومن معلومات كثيرة أدلت بها رقم أخرى ، ما كان عليه اقتصاد المدينة ، وما كانت تتمتع به من رخاء ، ونظام الحكم السياسي فيها ، وعدد من اسماء ملوكها .

واظهرت الحفائر ان قصر هؤلاء الملوك كان يقع الى الشمال والشرق من المعبد المذكور ، وان منشآته كانت تحوي باحة كبرى ، وقاعة للعرش ، وبيتاً ملكياً ، وقاعات ضخمة للاستقبال ، وغرفة للخزانة ، ومستودعات للحبوب ، وغير ذلك ، ثم معبداً صغيراً مخصصاً بالملوك فقط . وتبين من كل ذلك ان هذا القصر يشبه القصور الملكية السومرية - الأكدية التي كانت تبنى في البلاد الرافدية .

ويذكر الكونت دومنيل دوبويسون ان الميتانيين سكنوا (قطنة) منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ويشير الى التشابه بين مخطط أسوارها وبين مخطط مدينة (أفاريس) في الدلتا من مصر ، التي أنشأها الهيكسوس بعد احتلالهم لبلاد النيل ، وإلى ان هؤلاء الميتانيين دخلوا مصر مع بعض الاقوام العربية السورية ، وأقاموا فيها عدة قرون في عهد الدولة المصرية المتوسطة . كما يذكر اعتماداً على ما وجده من آثار ، وعلى ما اطلع عليه من نصوص هيروغليفية منقوشة على جدران معبد الكرنك وغيرها ، ان المصريين لما طردوا الهيكسوس ، وتعقبوهم الى سورية ، استولوا على (قطنة) عدة مرات في أزمان الفراعنة تحوتمس الاول وتحوتمس الثالث ، وأمينوفيس الثاني وأمينوفيس الثالث ، وعقدوا أواصر الصداقة مع ملوكها ، وأهدوهم هدايا مصرية متعددة منها ، تمثالان لأبي الهول ، وجدا في معبد الربة (نين - ايغال) وان هذه الصداقة دعت الى ازدهار جديد فتح في حياة المدينة .

ويمضي المنقب المؤلف في تلخيص بقية العصور التي مرت على (قطنـة) فيقول إن الإزدهار الذي أشار اليه أطمع بثروانها ، الحثيين الذين كانوا قد مدوا نفوذهم الى سورية الشمالية ، فهاجموها بين سنتي (١٣٨٥ - ١٣٨٠) من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، بقيادة ملكهم شوبيلوليوما ، وقضوا على (أكيزي) آخر ملوكها ، ونفذوا الى داخلها ، واحرقوا منشآتها ، ودمروا معبدها وقصرها . إلا أنهم لما ارتحلوا عنها ، عاد اليها سكانها الذين هربوا منها ، وسكنوها من جـديد ، وأعادوا اليها ازدهارها ، ووسعوها ومدّوا بحياتها حتى العصر البابلي الجديد . وظلت (قطنة) هكذا إلى ما بعد زوال حكم (بختنصر) ، ولا يدرى كيف كانت نهايتها . وكل مايعرف أن بعض ما التقط من أرضها من آثار ، يرقى إلى العهد الروماني وكان ذلك في الجهة الشمالية الشرقية من سورها وأنه لم توجد فيها آثار تعود إلى مابعد هذا الزمن .

أما التجربة الثانية لإنشاء مدينـة في تلك الارجاء فتتجلى في بناء المدينة ، المعروفـة باسم (قادش) القائمة أنقاضها في (تل النبي مند) على بعد (١٥ كيلومتراً) إلى الجنوب الشرقي من مدينـة حمص الحالية . ويبلغ طول هذا التل نحو الكيلو متر الواحد ، وارتفاعه (٣٢ متراً) ويختص بارتفاع منحدراته وعدم انحطاطها تدريجياً . وأول من تعرف على أنقاض مدينة قادش في التل المذكور الأميركي تومبسون ، وفي سنتي ١٩٢١ - ١٩٢٢ نقب فيه العالم موريس بيزار ، ولم تؤد هذه التنقيبات إلا لمعرفة خطوط مبهمة عن حياة المدينة التي يحتويها في تضاعيفه . وذلك بسبب أن التنقيبات المذكورة لم تجر على نطاق واسع ، وبالقدر الكافي اللازم لما تحتاجه الحفائر الأثرية الهامة ، وبسبب موت المنقب المبكر ، وعدم قيام من يخلفه في متابعة مشروعه [١] .

ومهما يكن فإن شهرة (قادش) الأثرية كبيرة جداً ، وتنبعث هذه الشهرة عن ورود اسم هذه المدينة مراراً في النصوص القديمة ، واقترانها خاصة بحادثة هامة في تاريخ سورية . وهي المعركة التي نشبت بقربها سنة (١٢٧٢ ق . م) بين الجيش المصري الذي قاده رعمسيس الثاني وبين الجيش الحثي الذي قاده خاتوسيل ، وانجلت عن تقسيم هذه البلاد بين الفراعنة والحثيين على طول خط اعتباري يمر جنوبي المدينة .

والظاهر أن هذه المدينة الكنعانية - الفينيقية التي قامت في ذلك الزمن ، والمطمورة على عمق ثلاثة أمتار من ذروة (تل النبي مند) ، كانت مبنية من الطوب ، ويحيط بها سور من حجر وله

(١) انظر كتاب : Mourice Pézard : Qadesh, Mission archéologique à tell Nébi Mend, 1921-22, Paris, *1931* .

عدة أبواب على شاكلة ما كان معروفاً في المدن السورية القديمة كـ (كركميش وزنجرلي) وغيرهما ، وان الماء كان يحيط بها من كل جانب مسوقاً في قناة تتفرع من العاصي ، وقد وجدت في هذه الطبقة آثار منقولة متعددة منها لوح حجري منحوت يمثل الفرعون (سيتي الأول) ، وهو يتلقى حربة الظفر ، وأمامه أربعة أرباب هي : (أمون ـ رع ، ومانتو ، وخنصو ، ورشيف) . ويذكر اللوح المذكور بانتصار لهذا الملك في سورية . كما وجدت تماثيل صغيرة برونزية يرى فيها أرباب سورية قديمة مرتدية أثواباً طويلة ، وعلى رؤوسها قلنسوات مخروطية وتمسك بأيديها اليسرى الصولجانات ، وتبارك بأيديها اليمنى .

وتقع الطبقة اليونانية الرومانية مباشرة تحت منازل القرية الحديثة ، ويبدو أن قادش تحولت آنئذ إلى قلعة ، وان منشآتها امتدت جنوبي التل وغربه ، وقد أخرج من هذه الطبقة كثير من الأواني والكسر الزجاجية والفخارية خلال الحفريات التي أشرنا إليها وخلال حفريات سرية جرت فيها . وانتهى إلينا كثير من الأشياء الأثرية التي كانت بأيدي لصوص الآثار ، ومنها عدد من التماثيل البرونزية والمرمرية والأواني الزجاجية الثمينة . وقد حاولنا لمكافحة هذه الحفريات أن نقوم بالتنقيب لحسابنا ، فأجرينا في صيف[1] سنة (١٩٥٠) حفائر في مقابر المدينة المنتشرة في شمالها ، وكشفنا عن واحد وسبعين قبراً ، أعطتنا عدداً من الجرار الفخارية ، والقوارير والخناجير الزجاجية ، والأدوات البرونزية ، وشيئاً من الحلي الذهبية والنقود ، وكلها من العصر الروماني .

ويتبين مما تقدم أن حياة مدينتي قطنه وقادش توقفتا في العصر الروماني . وما ذلك إلا لأن مدينة حمص (ايزا ، أو ايميزا أو ايمسا) التي نشأت في هذا العصر ، أو في العصر السلوقي الذي سبقه في منطقة متوسطة بين المدينتين المتقدمتين من سهل العاصي ، ورثت أهميتها ، وخلفتها في تصريف مصائر سورية الوسطى . وإذا جاز لنا أن نقول إن حياتها بدأت في العهد السلوقي ، فمن الطبيعي أن نميل إلى الاعتقاد ، إنها كانت بين المدن السورية التي شيدها سلوقوس نيكاتور

---

(١) قام بهذه الحفائر السيد زكي الأمير الملحق الفني في المديرية العامة للآثار والمتاحف ، انظر مقال سليم عبد الحق : حفريات مقبرة تل النبي مند ، ص ١٦٥ ، الجزء الأول من العدد الأول ، من مجلة الحوليات الأثرية السورية .

أو التي منحها اسماً يونانياً ، كسلوقية (السويدية) ولاوديسة (اللاذقية) ، وأفاميا ، وإنطاكية ، وبيروها (حلب) ، وكالسيس (عنجر) ، ولاريسا (شيزر) الخ .. [١]

ولا ريب أن الميزات الزراعية والتجارية للمنطقة المشار إليها هي التي دفعت السلوقيين للاهتمام بموقع حمص [٢] . وكان هؤلاء أول من أنشأ بحيرة قطينة الاصطناعية عن طريق تشييد سد ، غايته تجميع مياه نهر العاصي ، وتسهيل التصرف بها ، والتمكن من إرواء كل الأراضي الممتدة بين البحيرة المذكورة ، وسهل الغاب الذي استثمروه في تربية خيول فرسانهم وأفيالهم المستخدمة في حروبهم .

هذا وإذا فاتتنا معرفة مخطط مدينة حمص في ذلك العهد بسبب اختفاء نواة السكن القديم تحت منشآت المدينة الحالية ، فأكبر الظن أن ذلك المخطط كان على شاكلة مخططات كل المدن السورية المعاصرة كدمشق وحلب وأفاميا وإنطاكية ودورا أوربوس وغيرها ، أي على هيئة رقعة الشطرنج ، تتقاطع شوارعه بزوايا قائمة . والمعتقد أن الشارعين الرئيسيين الـ (ديكومانوس Décumanus) الممتد من الشرق إلى الغرب ، والـ (كاردو Cardo) الممتد من الشمال إلى الجنوب ، في مدينة حمص السلوقية كانا يتلاقيان في النقطة الواقعة أمام مبنى قصر الحكومة الحالي ، وأنه كانت تمر على الأول القوافل التي تأتي من البادية قاصدة الساحل الفينيقي ، وتمر على الثاني مواكب التجارة بين دمشق وأفاميا ثم إلى إنطاكية .

وأفاد إنشاء حمص في القرون الأخيرة من الالف الاول قبل الميلاد ، القبائل العربية التي كانت تترشح سلمياً إلى جميع أطراف سورية آنئذٍ [٣] ، فنفذت إلى اراضي هذه المدينة وألفت معظم سكانها ، ولم تلبث أن انتزعتها سنة (٩٦ ق . م) من سلطان السلوقيين . وتولت

---

(١) انظر في الكتابين الآتيين لـكاتب المقال الدكتور سليم عبد الحق :
الفن الإغريقي ، وآثاره المشهورة في الشرق ، دمشق ، ١٩٥١ ، ص : ١٧٨
روما والشرق الروماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص : ٤٨٠ وما بعدها . وكذلك في كتاب : الأستاذ فيليب حتي ، تاريخ سورية ، History of Syria, London, 1957 ، ص : ٢٣٩

(٢) للتعرف على كل مزايا الموقع الجغرافي لسهل حمص ، يستحسن مطالعة كتاب :
Jacques Weulerèsse, L'Oronte, Etude de fleuve, Tours, 1940.

(٣) انظر الصفحتين : ٢٣٦ ، ٤٦٦ ، من كتاب روما والشرق الروماني المتقدم الذكر .

، منذ ذلك التاريخ ، في مدينة حمص ، سلالة حكام عرب ، عرفت في التاريخ باسم الحكم ، ثاني امرائها (سمسيغرام) . ووصلت إلينا أسماء ثمانية منهم أولهم دابل ملكا ، ثم سمسيغرام وجمبليك ، والإسكندر ، وجمبليك الثاني وسمسيغرام الثاني وعزيز ، وسهيم [1] . وقد حكموا حمص متتابعين منذ فاتحة القرن الاول قبل الميلاد إلى النصف الثالث من القرن الاول بعد الميلاد ، وألفوا دولة صغيرة منها في سورية الوسطى ، وكانوا يتولون فيها أيضاً سدانة معبد الشمس المشهور ، ويتمتعون بشهرة كبرى ، وبثراء فاحش ، حتى أن سيسرون الخطيب الروماني المشهور أطلقه على خصمه القائد (بومبه) بعد أن عاد إلى روما من فتحه سورية سنة (٦٣ ق . م) اسم معاصره سمسيغرام تعريضاً بما جمع من ثروات ضخمة .

وقد ضرب هؤلاء الامراء العرب النقود بأسمائهم ، وتدخلوا في المنازعات الرومانية الداخلية ، وتحزبوا لانطونيوس على أوكتافيوس ، وتنازعوا مع الدولة اليهودية في فلسطين ، وانصرفوا إلى العناية بالزراعة ، واستثمروا سهل العاصي أحسن استثمار ، حتى أصبحت حمص تعرف بما تنتجه بساتينها وكرومها وحقولها .

ولم تتحدث النصوص بشيء عما كانت عليه المدينة في ذلك الزمن ، ولو أنه لا يجوز لنا أن نرى بالخيال منشآتها آنئذ ، إلا أن هذه المنشآت لا بد وأن تكون على روعة إحدى أوابدها التي بقيت قائمة في غربها حتى سنة (١٩١١) ، حيث هدمت ، وازيلت عن بكرة أبيها ، وبنيت (الكازخانة) في موضعها . وهي التي كانت تعرف باسم (الصومعة) ، وقد بنيت لتكون مدفناً لسمسيغرام وأبنائه حسب كتابة كانت تشير فيها إلى ذلك [2] ، ويتضح أن هذا المدفن ، اعتماداً على ما انتهى إلينا عنه من أوصاف ، وما أخذ له منذ نحو قرنين

---

(١) أورد الخوري عيسى أسعد تفاصيل مختلفة في كتابه : (تاريخ حمص) المتقدم الذكر ، عن هؤلاء الأمراء العرب .

(٢) كانت هذه الكتابة على لوح مستطيل بارز في أعلى الطابق الثاني من المدفن من جهته الشمالية الغربية وفيها ما يلي : « بني غايوس يوليوس من قبيلة فابيا ، سمسيغراموس ، المسمى أيضاً سيلاس بن غايوس يوليوس ألكسيون ، في حياته هذا المدفن لنفسه ولأسرته عام ٧٨ » . انظر الصفحتين : ١١٣ ـ ١١٤ من كتاب : Louis Jalabert, René Mouterde et Claude Mondésert : Inscriptions greques et latines de la Syrie, Tome V : Emésène , Paris , 1959 .

من صور وتخطيطات (١) ، كان برجاً يبلغ ارتفاعه (١٥ متراً) ، ويبلغ ضلع قاعدته (١٢٫٥ متراً) . وكان له طابقان يعلوهما هرم مدرج مقطوع ، يصعد المرء إلى الاول منهما بدرج عدد درجاته ستة ، ويتراجع الطابق الثاني قليلاً إلى الوراء عن هذا الطابق الاول ، وأمامه أيضاً ثلاث درجات . وكانت جدران الطابقين مزدانة بدعائم مخددة فوقها جبهات مثلثة . أما داخل البرج فقد كان يحتوي في كل طابق على قاعة مستديرة تتوزع حولها ثمانية محاريب نصف دائرية .

ويعدل روعة العمارة في عاصمة سلالة سمسيغرام العربية جمال الفنون الصناعية التطبيقية التي كانت في ذلك الزمن والتي استطعنا لحسن الحظ أن نعثر على نماذج متعددة منهـا بفضل اكتشاف هام حدث في المنطقة المجاورة لموضع المدفن المتقدم ذكره .

وفي الواقع يعود إلى هذا الزمن عهد المقبرة الهامة التي وجدت في المكان المعروف باسم (جورة أبو صابون) والقريب من موقع (الصومعة) وقد اكتشف المقبرة المذكورة لصوص الآثار سنة ١٩٣٦ ،وسرقوا عدة قبور من قبورها ، قبل أن يبلغ أمرها إلى مديرية الآثار التي تولت الكشف عن ما بقي من هذه القبور وملاحقة المغتصبين وإرجاع ما سرقوه (٢) . وقد توفر بنتيجة ذلك مجموعة من أثمن ما أخرجته أراضي الإقليم الشمالي من آثار ، أودعت المتحف الوطني بدمشق في قاعة خاصة . ولا بد من وصف بعض عناصر هذه المجموعة القيمة التي يظن أنها كانت لافراد سلالة سمسيغرام جعلت في قبورهم لما توفوا ، وأهم هذه العناصر :

الخوذة ذات الوجه المتألفة من قطعتين الأولى لتغطية رأس صاحبها والثانية وهي القناع لستر وجهه . ويلاحظ أن قطعة الرأس من الحديد المزين بزخارف فضية . أما القناع فهو أيضاً من الحديد ، إلا أنه ملبس تماماً بالفضة ، ويمثل وجه رجل له تقاطيع اتفاقية ، كالذقن وقوسي الحاجبين والعينين ، على حين ان بعض التقاطيع الاخرى تمثل صفات شخصية كالانف الكبير المحدب والفم الصغير والشفة السفلية السميكة ، والوجنتين ، مما يدل على رغبة الفنان الذي صنع الخوذة في ابراز نموذج إنساني معين ، ومما

---

(١) انظر هذه الصور والمخططات في الألواح (٢١ ـ ٢٣ مكرر) المصورة في كتاب :
Cassas : Voyage Pittoresque de l'Egypte et de la Syrie, Paris 1958

(٢) انظر البحث المفصل الذي كتبه عنها العالم :
H, Seyrig, Antiquités de la nécropole d'Emèse, Syria, XXIX 1952. p. 204 - 250, PL. XXI - XXVIII .

يجعل لهذه الخوذة قيمة فريدة أن أحد الصائغين المشهورين في حمص أو انطاكية أو في مدينة سورية أخرى ، على ما يخيل إلينا كلف بصنعهـــا ، وأنها كانت زينة فريدة لصاحبها . وتدل الزخرفة النباتية الممثلة على مؤخرتها والتي يوجد ما يماثلها على الابنية السورية في القرن الاول الميلادي ، أنها من هذا العصر ، ولم نتمكن ويا للأسف من معرفة اسم صاحب الخوذة ، وأكبر الظن أنه من سلالة سمسيغرام [١] .

وهناك في نفس المجموعة الاثرية المذكورة قناع ذهبي يشبه وجه الخوذة مما يدل على أنه صنع لنفس الشخص الذي صنعت له . ويلاحظ أنه في هذا العصر ما زال الامير العربي صاحب هذه الحلية النفيسة محافظاً على العادة الملكية القديمة التي تنص منذ عهد الميسينيين على تزويد الجثة الملكية بقناع ذهبي ومن الاشياء وجدت في المقبرة الملكية المذكورة سوار ذهبي مزين بالفيروز ، وخاتم ذهبي على فصه صورة الثمينة التي صاحبه التي تشبه الوجه الممثل على الخوذة وخاتم آخر الفص فيه من العقيق ، ومنها قلادة ذهبية لطفل وأوراق ذهبية عليها صورة ربة الظفر ، أو الإله أبولون ، وعدد كبير من الاشياء الذهبية والفضية التي تؤلف اثمن كنز أثري وجد في سورية حتى الآن انتهى إلينا من العصر الروماني .

وعلى الرغم من زوال النفوذ السياسي لهؤلاء الأمراء العرب من حمص ، خـلال النصف الثاني من القرن الاول ، بسبب تولي الرومان الشؤون الفعلية للمدينـة ، وضمهـم لها للولاية السورية منذ سنة (٧٩ م) فان المكانة التي نالتها حمص في عهد سلالة سمسيغرام ظلت كما كانت وتابعت المدينة ازدهارها قدماً ، ولعـل لكهنة معبد الشمس وسدنته (وأكبر الظن أنهم منحدرون من سلالة الأمراء العرب السابقين) تأثيراً بذلك .

يمضي على حمص حين من الزمن وهي منصرفة بنشاط الى تجارتها وزراعتها . وفي العشر الاخير من القرن الثاني الميلادي يمر بها القائد (سبتيم سيفير) الذي كان من أصل افريقي ، ومن ألمع قادة الرومان ، فكان لمروره بهـا أثر كبير لا في تاريخ حمص أو سورية فحسب بل في تاريخ

---

(١) يتحدث (جالابير) و (موترد) و (مون ديزير) في كتابهم : (الكتابات اليونانية واللاتينية لمنطقة حمص) المتقدم ذكره (ص : ١١٤ ـ ١١٦) عن خمس شواهد بازلتية عليها نصوص تشير أن الأشخاص الذين نصبت على قبورهم كانوا يحملون إما اسم سمسيغرام ، أو انهم يمتون بصلة الى هذه الأسرة. ويذكر المؤلفون المشار إليهم أن هذه الشواهد وجدت في مدفن بيزنطي عثر عليه تحت أحد بيوت حي الحميدية ، وأنهم يعتقدون أنها نقلت إلى المكان المذكور من المقبرة التي نحن في صددها ، مما يؤيد نظرية نسبة الأشياء إلى سلالة سمسيغرام .

العــالم (١) فقد رأى هذا القائد (جوليا دومنا) ابنة كاهنها ، وكانت على جمال فائق وثقافة عالية ، فأحبها وتزوجها ، وبنى منها بولدين هما كرا كاللا وجيتا . وتشاء الاقدار أن يصبح سيفير أمبراطوراً لروما ، سنة (١٩٧ م) ، وأن يكون حكمه من أحسن من تولوا هذه الأمبراطورية . وبه بدأ عهد الاباطرة الذين عرفوا في التاريخ باسم (الاباطرة السوريين) .

واهتم سيفير بوطن زوجته سورية ، وأتى اليها مراراً ، وجعل من حمص عاصمــة لسورية الفينيقية ، ومنحها رعايته وعنايته ، وتألف لجوليا دومنا ولأختها (جوليا ميزا) نفوذ كبير في الدولة لما كان لهما من مواهب نادرة . واستمر هذا النفوذ في روما ، بعد وفاة سيفير (سنة ٢١١ م) وتولي ابنه كرا كاللا العرش من بعده . إذ أن هذا الاخير اتبع خطة أبيه في الالتفات إلى حمص وسورية . وقد منح حمص وصور ، الحق اللاتيني ، واسم مدينة رومانية ، وخولها التمتع بما في ذلك من امتيازات .

وقتل كرا كاللا في سنة (٢١٧ م) ، وآلت الأمبراطورية إلى (إيلاغــابال) كاهن معبد الشمس حفيد جوليا ميزا من ابنتها (جوليا سوميا) . ولم يكن له من العمر إلا أربعة عشر عامــاً . وقد شخص الى روما ، ونقل الحجر الاسود من معبد الشمس في حمص إلى عاصمــة الامبراطورية . وقامت سوميا وأختها (ماما) بادارة شؤون الحكم فيها ، حتى قتل ايلاغابال سنة (٢١٨ م) ، وخلفه من بعده الإسكندر سيفير ابن خالته ماما ، وانصرف هو الآخر إلى وطنه سورية ، وحباها جانباً كبيراً من اهتمامه وعطفه إلى آخر حكمه في سنة (٢٣٥ م) .

وكانت مدينة حمص خاصة خلال عهد هؤلاء الأباطرة السوريين مركز الامبراطورية ومحط أنظارها ، حتى أن أحد كتاب الرومان الكبار كتب : « إن العاصي صب مياهه منذ مدة طويلة في نهر التيبر حاملاً معه لغته وعاداته » . وبلغت زراعة المدينة درجة عاليــة من الكمال ، وكثرت حولها الكروم وبساتين الزيتون ، وقد وجد في أراضيها كثير من الارحية من العهد الروماني ، وانتشرت عشرات القرى حولها ، مما دعى الى ازدياد العنــاية بشؤون الري ، وتجديد سد بحيرة قطينة فيما بعد (٢) . وقسمت الاراضي الزراعية حولها الى حصص متساوية ،

(١) ان الحوادث التي تسرد الآن في هذا المقام معروفة ومثبتة في كثير من الكتب الحديثة التي تبحث في تاريخ روما والشرق ونحن ننصح بمراجعة الصفحات (٣٩٥ ـ ٤١٠) من كتاب :
André Piganiol : Histoire de Rome, Paris, 1946 .

(٢) جرى هذا التجديد في زمن الامبراطور ديوكليسان في آخر القرن الثالث الميلادي .

كل منها خمسون هكتاراً ، وأعطيت هذه الحصص إلى صغار المزارعين أو المتقاعدين من أفراد الفرقة العسكرية الحمصية . وقد استمر نظام الاستثمار المذكور سائداً حول حمص أكثر من الف سنة ، حتى القرن الثالث عشر أي الى زمن إغارات المغول التي اجتاحت البلاد السورية ودمرت حقولها . وبقيت آثار هذه الحصص الزراعية دون أن ترى بالعين المجردة ماثلة إلى عصرنا هذا كما أظهرت التصاوير التي احتاجتها عمليات المسح الجوي التي جرت في أراضيها منذ مدة قريبة (١) . على حين أن هذه الحصص أنها واضحة كل الوضوح في شمالي المدينة وغربها في الحقول البعلية التي ما زالت محافظة على حدودها القديمة حتى يومنا هذا .

ومدت الطرق بين حمص وبين المدن المجاورة ، وكانت هذه الطرق تبنى وترصف بالحجارة الضخمة المنحوتة المسواة . وما تزال ظاهرة إلى عصرنا الحاضر بعض أجزاء الطريق التي كانت ممتدة بين مياس حمص ومصياف ، وخاصة في مناطق خربة الجاموس وخربة السوداء ، وأم محناية وشرقي تليل ، وغربي تل الذهب ، والبياضيه ، ومصياف ، والعشارنة ، وقلعة المضيق ، وسهل الغاب .

وقد اغتنت حمص وأثرت ثراء كبيراً ، وانتشرت تجارتها في أطراف البلاد السورية ، وخاصة ذهاباً وإياباً بين الخليج الفارسي والبحر المتوسط ، مع القوافل التدمرية . وكانت تمر منها حاصلات وبضائع المرافىء الفينيقية كالتماثيل البرونزية ، والاقمشة الصوفية المصبوغة بالارجوان ، والزيوت المعطرة ، والاواني الزجاجية الملونة الثمينة والأدوات والحوائج الفضية والذهبية ، والخمور إلى مرافىء الخليج الفارسي ، ولا سيما مرفأ (بار باريكوم) . كما انها كانت تستقبل القوافل العائدة من تلك الجهات محملة بالبضائع العربية وببضائع الهند والشرق الاقصى كالعطور ، والافاوية والاحجار الكريمة ولا سيما الفيروز ، واللازورد ، واللآلىء ، والاقمشة القطنية ، والأنديكو ، والنرد ، والفراء ، والحرير (٢) . وقد حمل تجار حمص هذه البضائع الاخيرة عبر البحر المتوسط ، إلى إيتاليا ، وغاليا ، وأسبانيا ، وأنشأوا متاجراً في مدنها ، وساعدهم في أعمالهم عطف الاباطرة السوريين وحدبهم عليهم .

---

(١) انظر المقال القيم الذي نشر عن هذا الموضوع في المجلدين الثامن والتاسع من مجلة الحوليات الأثرية (الصفحات ٥٥ ـ ٥٨) من القسم الأجنبي :

W. J. Van Liere : Ager Centuriatus of the Roman Colonia of Emesa (Homs) .

(٢) انظر فصل (التجارة التدمرية) في الصفحات (٧٨ ـ ٨١) من كتاب الأب :

Jean Starcky : Palmyre, Paris, 1952 .

وتولى كثير من سكان حمص مناصب الدولة الرومانية الكبرى ، وتمتعوا بعضوية مجلس الشيوخ ، وساعدوا على تغيير العقلية الرومانية التقليدية المتعصبة ، وأسهموا بدفع الدولة إلى منح حق المدينة الرومانية الى جميع سكان الامبراطورية ، بعد ان كان هذا الحق قاصراً على الرومان فقط في العهود السابقة . وتبدت النزعات الانسانية للأباطرة السوريين في الحكم ، ووهبوا جنودهم الاراضي الزراعية مقابل ما كان يقدمه هؤلاء الجنود من خدمات عسكرية طويلة الأمد في الجيش ، وأعادوا نظام المساعدات الاجتماعية للفقراء ، الذي كان قد ألغي منذ مدة وزيدوا أجور الاساتذة والاطباء ، ووزعوا الكراسي المجانية على فقراء الطلاب ، وأقرضوا المحتاجين بدون فائدة ، لكي يتمكن هؤلاء من شراء الاراضي الزراعية ، وساعدوا على نشر المسيحية ، ودافعوا عن زعمائها ، وحرروا كثيراً من الارقاء ، وحاربوا النظام الارستقراطي ، والاقطاعيين ، ونشروا المساواة ، وعمموا المبدأ الثوروي في محاباة الفلاحين ، ووزعوا القمح مجاناً . .

ولا شك أن فن العمارة في عهد هؤلاء الأباطرة لم يبق بمعزل عن النهضة التي ذر قرنها في المدن السورية الأخرى ، ولا سيما في تدمر التي تجددت منشآتها آنئذٍ ، وازدانت بعدد كبير من الأبنية الجديدة . وليس المقام وصف أو دراسة هذه المنشآت الرائعة التي يعود معظمها إلى آخر القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث . ولا تلك الحصون والقلاع الجبارة التي بناها الاباطرة السوريون على حدود الصحراء ، من بصرى حتى الفرات لحماية حدود سورية الشرقية ، ولا مباني بعلبك الدينية الضخمة التي كان لسبتيم سيفير وابنه كراكالا حظ وافٍ برفع صروحها وخاصة بناء معبد جوبيتر ، والفناء الواسع الرائع الممتد أمامه . ولا يخالجنا ريب أن حمص نالت نصيباً ليس قليلاً من هذه المنشآت التي كان يقيمها الاباطرة ، متبعين سياسة إظهار عظمتهم ، ورفع شهرتهم أمام أعدائهم الباوثيين (١) وأنها أسهمت في تطوير الاسلوب المعماري الهلنستي (٢)

---

(١) انظر الصحيفة ١٧٧ من كتاب :
M. Maurice Dunand : De l'Amanus à Sinaï, Beyrouth 1953 P. 177

(٢) يستحسن مراجعة البحثين الهامين في هذا العدد :
D. Schlumberger, Les formes anciennes du chapiteau corinthien en Syrie, en Palestine et en Arabie, Syria : 1933, P. 283 - 317 .
D. Schlumberger, Note sur le décor architectural des colonnes, des rues, et du camp de Diocletien, Berytus, II : 1935 P. 163 - 7.

وفي إغناء التجارب المعمارية الكثيرة التي كانت المدن السورية مسرحاً لها آنئذٍ ، واضعة عبقريتها في التأليف تحت تصرف مهندسيها ومهندسي الرومان الذين أنشأوا بما كان لهم من مهارة وابتكار أبدع الاوابد التي عرفها العالم آنذاك . ويظهر أن شوارعها وأسواقها كانت مبلطة في ذلك العهد .

وتسكت النصوص التاريخية عن الأوابد التي نشأت في ذلك العهد في حمص ، ولا تتحدث عنها بشيء ، اللهم إلا عن اسم معبد إلـه الشمس (ايلاغـابال) الذي كان الحجر الاسود موضوعاً فيه ، والذي كان يعد ملاذاً مقدسا يحرم مس من يلجأ إليه بسوء . ولا ندري إذا كان بناؤه من عصر الاباطرة السوريين أم من عصر سلالة سمسيغرام . وأكبر الظن أن شكله كان كمعبد (بل) التدمري ، أو كمعبد (جوبيتر الدمشقي) ، وينص على إقامة بناء ذي شأن وظائفي لموجبات الديانة العربية الوثنية القديمة ، وسط فناء كبير واسع ، تحيط به الأروقة من كل أطرافه . وكان مكانه موضع الجامع النوري الحالي الذي ظل إلى عهد قريب يحتفظ ببعض أعمدة المعبد القديم ، وببعض منحوتاته في صحنه الخارجي . وكذلك فإننا نعتقد أن سور مدينة حمص الذي بني حولها كان أيضاً من هذا الزمن .

وعلى الرغم من تأصل تقاليد العبادة الوثنية في حمص ، وذيوع صيت معبدها في العالم القديم ، فإن المدينة أسهمت إلى حـد كبير في نشر الديانة المسيحية . وتتحدث الروايات أن بطرس الرسول ، ويوحنا الإنجيلي مرا بأرضها ، فاستضافهما فلاح أسمه (خريسو موس) في بيته مدة ثلاثة أيام (١) . وقد تنصر هذا الفلاح فيما بعد ، وأقيمت مكان بيته كنيسة (بربارة) التي أدى فيها المسيحيون الحمصيون الأول فروض العبادة ، وسمعوا فيها الكرازة . وزاد عدد من تنصر من سكان المدينة منذ القرن الثاني ، وغدت حمص مقر أبرشية لما كانت عليه من إزدهار وعاش فيها خلال القرن المذكور والقرن الثالث عدد من نوابغ المسيحيين ، وعم التسامح الديني بعد مرسوم ميلان المشهور سنة (٣١٢) ، وانتشرت الكنائس فيها كما انتشرت في بقية المدن السورية ، ولا يخفى أن هيلانـة والدة الإمبراطور قسطنطين الكبير تنصرت ، وحمت المسيحيين ، وأظهرت كثيراً من الغيرة على النصرانية ، وشيدت بنفسها وأموالها كنائس متعددة في فلسطين وسورية وكانت الحصاد الاول للفن المعماري الديني المسيحي . وكان بين عداد هذه

---

(١) انظر الصحيفة (٣٩٠) من كتاب تاريخ حمص ، للخوري عيسى اسعد المتقدم الذكر .

الكنائس ، الكنيسة التي بنيت في حمص سنة (٣٢٦) ، ودعيت باسم كنيسة القديسة هيلانه ، والتي كانت مبنية على اربعة أركان ، وقال فيها المسعودي أنها من عجائب الدنيا [١] . ومنها أيضا الكنيسة الكبرى التي يقال أن رأس سيدنا (يحيى) نقل اليها بعد اكتشافه سنة (٤٥٣) مدفوناً في كهف . وظل الرأس المذكور محفوظاً في الكنيسة المشار اليها حتى منتصف القرن التاسع حيث نقل الى القسطنطينة . وكانت من أكبر الكنائس المسيحية التي ارتفع بناؤها في سورية خلال العهد البيزنطي . ومن هذه المباني الدينية أيضاً دير مار مارون الذي بني في عهد الامبراطور مارسيان حول سنة (٤٥١) ، ثم دير مار توما الذي اختطف منه المنذر بن ماء السماء أشهر الملوك اللخميين (٤٠٠ عذراء) وقدمهن ضحايا إلى العزى كما يقال . وقد ضاعت آثار هذه الأبنية ، ولم يبق شيء من معالمها بسبب الزلازل التي حلت في سورية الشمالية خلال أعوام (٤٤٧ ، ٤٥٨ ، ٤٩٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨) ، وامتداد أثرها إلى حمص ، وبسبب النكبات التي حلت في هذه المدينة ، وغيبت آثار الماضي منها . ومع هذا فقد وجدت كتابات مسيحية متعددة في أرجاء المدينة ، تبين منها عدد من أسماء قديسيها ، وكنائسها وأديرتها ، والاشياء الثمينة المودعة في هذه المعابد، وعلاقاتها مع بطريركية القسطنطينية ، كما أظهرت مقررات مجمع كالسيدوان الديني اشتراك أسقفها وأسقفين آخرين من بلاد العرب في أعمال هذا المجمع الهام . وأخيراً فإن ما وجد من صلبان أثرية فيها ، ويعود عهدها إلى الزمن البيزنطي ، يدل على مدى شهرة حمص المسيحية [٢] .

وقد نشأ من إستمرار السكن في المدينة القديمة ، أن قسما كبيراً من أبنية العهد المسيحي البيزنطي غاب في جوف الارض ، وعلتها المنازل المختلفة المنشأة عبر العصور . وقد ذكر المؤرخ شمس الدين الدمشقي في القرن الثامن [٣] : « ومن حسن بناء حمص أنه لا توجد بها دار ، إلا وتحتها في الارض مغارة ، أو مغارتان ، وماء ينبع للشرب ، وهي مدينة فوق مدينة »

---

(١) المسعودي : مروج الذهب .

(٢) اقتطفنا هذه المعلومات من كتاب (جلابير) و (موتيرد) و (موندزير) الذي تقدم ذكره ، ويحسن الرجوع إليه إذا أريد الاستزادة من التفاصيل .

(٣) احمد وصفي زكريا ، جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ، دمشق ، ١٩٣٤ ، صحيفة (٣٤٦) .

ويذكر المعمرون من أهل حمص أن الاشقياء الفارين من العدالة ، والمنقبون عن العاديات يقصدون هذه المغاور التي عثر فيها على بعض الكتابات اليونانية [١] .

وأكبر الظن أن كل هذه المغاور كانت مدافن مسيحية ، وما أشبهها بالمدافن المسيحية المدعوة (الكاتاكومب) والقائمة في ضاحية من ضواحي روما . وقد أظهرت الصدفة فى سنة (١٩٢٣) وسنة (١٩٤٠) ثلاثة مدافن بعضها من سنة (٢٧٨) م في جانب من جوانب محلة باب السباع ،وتتألف من أقبية ينحدر اليها المرء بأدراج ، وفيها أواوين جنازية ،وعلى جدرانها بعض التصاوير الجصية . وهي تحوي بعض القبور الحجرية المزينة بالمذابح والصلبان . إلا أن المدفن الذي اكتشف سنة ١٩٥٧ في حي الشرقية عند باب الدريب يفوق كل ما عرف من هذه المدافن المسيحية ، وقد نقب فيه الزميلان الشابان الاستاذان عدنان البني ونسيب صليبي ، وظهر لهما أنه حفر في الصخر خلال القرن الخامس الميلادي ، وأنه مدعوم بالاقواس المعقودة والعضائد الجانبية . وقد زينت جدرانه بالصور الملونة ذات المواضيع الانسانية والهندسية والزخرفية ، والكتابات ، وفي هذه الجدران محاريب متعددة . وقد شقت القبور في أرض المدفن ، وشيدت هذه القبور من الحجر أو أنها تألفت من قطعة واحدة من الآجر وغطيت بالواح من الرخام أو الآجر ووجدت في كل منها هياكل عظيمة لعدة أشخاص ، وعدد من الاشياء كالسرج الفخارية المزينة بالصلبان ووجوه القديسين ، وبعض القوارير والكؤوس الزجاجية ، وبعض الشكلات البرونزية التي كانت لأحزمة ، وبقايا عاجية لأدوات مختلفة ، وأساور وحلي برونزية ، وبعض الاعلاق البرونزية ، والاقراط الذهبية وغير ذلك . وقد رفع أيضاً منها قبر من الآجر ، محاط بطبقة جصية مزين بطيور وصلبان بيزنطية وكتابة يونانية دلت قراءتها على أن هذا القبر قد « أقامته (غريغوريا) لأبيها خادم الرب » [٢] .

ولا بد في هذا المقام من أن نذكر شيئاً عن (زنار العذراء) الذي اكتشفته بطريركية السريان الآرثوذكس في عهد المرحوم غبطة البطريرك مار أغناطيوس أفرام الاول ، في جرن مخفي من مذبح كنيسة السريان الأرثوذكس في حمص . وكان هذا الزنار قد أودع في المذبح المذكور عام (١٨٥٢) لما جدد بناء الكنيسة القديمة التي كانت تسمى كنيسة أم الزنار .

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصحيفة .

(٢) من تقرير موجز كتبه الأستاذان عدنان البني ونسيب صليبي .

ويظهر أنها كانت تملكه من زمن طويل . ويبلغ طول الزنار (٧٤ سم) ، وعرضه (٥ سم) وسمكه (٢ مم) ، ولونه أبيض سكري ومصنوع من الصوف ، ومطرز بالذهب [١] . وتؤكد البطريركية المشار اليها أن الزنار هو الذي أعطي لمار (توما) لما لحق جنازة العذراء ، وأمسك بها ، وقال ما أرجع حتى تعطوني إشارة يصدقني رفاقي بها . فانحل الزنار فوق الجنازة وتناوله توما .

وسبق أن ذكرنا أن العرب تكاثروا على حدود سورية الشرقية خلال القرون الميلادية الاولى ، وازداد ترشحهم إلى مدنها وقراها ، ومن هذه المدن حمص . وقد قدم الغسانيون من مأرب ونزلوا في بادية الشام . وأصبحوا أكبر القبائل العربية في القرن الرابع الميلادي ، وامتدت منازلهم بين تدمر شمالاً والبلقاء جنوباً ، وحالفوا البيزنطيين كما حالف اللخميون الفرس . ولما أشرقت شمس الإسلام ، وبدأت الفتوحات العربية ، كانت في حمص حامية بيزنطية قوية اعتصمت بأسوار المدينة ودافعت عنها مدة سنتين بعد سقوط دمشق ولا يعرف شيء عن هذه الأسوار التي بنيت كما ذكرنا خلال الازمنة الرومانية وأصلحت على أكبر الظن خلال الأزمنة البيزنطية . ومهما يكن فقد توجه إلى حمص أبو عبيدة بن الجراح مع السمط بن الأسود الكندي حسب رواية البلاذري في فتوح البلدان [٢] ونزل بباب الرستن من سورها ، وصالحه أهلها على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم ، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد ، واشترط الخراج على من أقام منهم . وقد استقرت فيها القبائل العربية اليمانية بعد الفتح من طيء وحجر وكلب وهمدان ، وفيها دفن القائد العربي الكبير خالد بن الوليد . وقد قيل إنه كان يتردد عليها يزيد بن معاوية حينما كان يكثر الاقامة في حوارين ، وأن ابنه خالداً بنى في غربها قصراً وأنه هو المدفون . وفي عهد مروان الثاني ثارت حمص ، فاستولى عليها مروان وجازاها بقسوة ، وهدم أسوارها [٣] كما هدم أسوار بعض المدن السورية الاخرى التي ثارت عليه ومنها أسوار مدينة تدمر .

---

(١) من تقرير موجز رقم (٦٥) ، تاريخ ١٩٥٣/٨/٦ كتبه المرحوم الدكتور يوسف السبع ومدير المعمل الفني السيد رئيف الحافظ ، وكانا قد كلفا بدراسة قضية الزنار المذكور .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، صحيفة (١٣٧) .

(٣) المصدر السابق ، صحيفة (١٤٠) .

وقسمت سورية آنذاك إلى عدة أجناد عسكرية، هي فلسطين والاردن ودمشق وحمص [١]. وكان جند حمص يحوي في بادىء الأمر جميع أراضي سورية الشمالية. وفي عهد يزيد بن معاوية فصلت عنها أراضي قنسرين وجعلت هذه جنداً جديداً [٢]. إلا أن الحدود لم تخطط بوضوح بين جند حمص وجند قنسرين، وكثيراً ما اختلفت المراجع التاريخية في نسبة بعض البلاد إلى كل منها كمعرة النعمان التي جعلها بعض المؤرخين في الاولى، وجعلها مؤرخون آخرون في الثانية. ومهما يكن فإن جند حمص كان يمتد شمالاً حتى القرشية الواقعة على طريق اللاذقية وجسر الشغور، ويضم إلى المدن الداخلية: أفاميا وحماه وشيزر والسلمية والرستن، مرافىء اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس، وتقف حدوده الجنوبية عند بحيرة حمص، أما حدوده الشرقية فقد كانت وراء الفرقلس والقريتين وتدمر التابعة له.

وعلى الرغم من انصراف العباسيين عن سورية إلى العراق، فان مدينة حمص ظلت محافظة على ازدهارها في زمنهم. ويدل على ذلك الضريبة التي كانت تفرض عليها سنوياً في عهد الخليفة هارون الرشيد (بين سنتي ١٧٠ - ١٩٣ هـ) حسب ماورد في كتاب الوزارة للجيشاري، وقدرها (٣٢٠ الف دينار) مضافاً اليها حمولة (١٠٠٠ جمل) من الزبيب (إذ أن كروم المدينة كانت مشهورة كما تقدم) [٣]. وقد نجت المدينة من القرامطة الذين استطار شرهم في حماة والسلمية والمعرة وعدد آخر من المدن السورية.

وليس في حمص أبنية أثرية يرجع تاريخها إلى العهدين الأموي والعباسي. ويؤكد هرزفيلد أن جامعها الكبير كان يشغل نصف كنيسة القديس يوحنا التي كانت على أكبر الظن مكان معبد الشمس [٤]. وقد أتى هذا الجامع على نموذج الجامع الذي ساد في العصر الأموي، والذي انتهت الينا سبع نسخ عنه ما تزال تشاهد في مختلف المدن السورية وأشهرها: المسجد الاموي في دمشق، والمسجد العمري في بصرى

(١) انظر بحثاً قيماً عن أجناد سورية في عهد العباسيين في الصفحة (١٩٨) وما بعدها من كتاب:

Maurice Canard : Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie. Tome Premier, Paris 1953.

(٢) ونزع الخليفة هارون الرشيد منها أيضاً الأراضي السورية الشمالية المتاخمة لأراضي الامبراطورية البيزنطية وأنشأ من هذه الأراضي ما سمي بـ (العواصم).

(٣) انظر مادة (حمص) للمستشرق سوبرنهايم، في موسوعة الاسلام، باللغة الافرنسية.

(٤) المصدر السابق.

والمسجد العمري في درعا وجامع عمر في القدس وجامع بعلبك . إلا أن بناء جامع حمص الكبير الحالي متأخر(١) ولا يظن أنه يعود إلى أقدم من القرن الحادي عشر الميلادي ، ومهما يكن ، فإن الجامع المذكور يشبه الجوامع المتقدمة بتخطيطه . إذ أنه مستطيل ، ويمتد من الشرق إلى الغرب ، وينقسم الى قسمين يكادان يتعادلان ، وهما الحرم والصحن . والحرم متألف من بلاطتين بينهما صف من العقود ، ولكل منها ثلاث عشرة قبة محددة . وفي منتصفه محراب تنفتح أمامه بلاطة مستعرضة فوقها قبة صغيرة ، ويقوم إلى يمين هذا المحراب محراب ثانٍ قديم مزين بلوح من الفسيفساء المذهبة . ويظن أن هذه الفسيفساء من العهد الاموي أو العهد العباسي ويوحي تأمل واجهة الحرم المشرفة على الصحن ، أن الجامع تعرض لعدة تغيرات خلال عصور مختلفة ، يصعب في هذا البحث الموجز إيضاح مراحلها . ويكتفى بالاشارة أن الواجهة المذكورة مؤلفة من أربعة أقواس كبيرة ينتظم تحت كل منها طابقان . ويقوم كل من هذين الطابقين على خمسة أقواس صغيرة . أما الصحن فهو باحة كبيرة تحيط بها أروقة قائمة على دعائم ، وفي وسطها حوض ماء وقبة ترتفع على عمد ، وتحتها بئر . ويدخل إلى الجامع من باب رئيسي غربي يؤدي إلى الصحن على طريق دهليز فوقه قباب ، ومن باب جنوبي شرقي يصل المرء منه رأساً إلى الحرم .

وخضعت حمص إلى سيف الدولة منذ سنة (٩٤٤ م - ٣٣٣ هـ) ، وارتبطت بحلب ، وظلت إلى سنة (١٠١٩ م - ٤٠٦ هـ) تحت حكم الحمدانيين الذين كانوا ينصبون عليها ولاتهم . وعلى الرغم من استمرار تمتعها برخائها القديم ، فإنها تأثرت من الحروب الحمدانية - البيزنطية . إذ أن هذه الحروب ، بعد أن كانت سلسلة انتصارات رائعــة أحرزها سيف الدولة في أوج قوته على البيزنطيين ، أخذت تدور في صالح هؤلاء بعد أن قام على العرش امبراطورهم المشهور نسيفور فوكاس الذي يسميه المؤرخون العرب (نقفور الفقاش) . فهاجم بعد وفاة سيف الدولة شمالي سورية ، واستولى على مدنها ، اللاذقية ومنبج ، ووصل إلى حمص فأخلاها أهلها . وقام فوكاس بنهبها واحراقها وتدمير جامعها الكبير وسبي أهلها ، سنة (٩٦٩) (٢) ، ثم عاد ليموت إلى بلاده بعد أن استولى أيضاً على إنطاكية . وزحف عليها بعده الامبراطور يوحنا تزيميسكيس (ابن الشمشقيق) ، الذي نفذ

(١) انظر الصفحة (١٦٥) من كتاب :
Max Van Berchem et Edmond Fatio : Voyage en Syrie, Le Caire 1914 .

(٢) لهذا البحث المتعلق بتاريخ السلالة الماكدونية في بيزنطة مصادر كثيرة نشير إلى أحدها وهو : Charles Diehlet, georges Marcais, Le monde Oriental de 395, à 1081, Paris, 1936. والصفحة (٤٧٣) . انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، طبع بيروت ، ١٩٠٨ ، ص : ٢٩ .

إلى سورية سنة (٩٧٥ م)[١] . واستولى على حمص وبعلبك ودمشق وبيروت . ولما هلك تزيمسكيس تولى بعده بازيل الثاني ، فتابع تصريف سياسة بيزنطة الشرقية واجتاح سورية سنة (٩٩٥)[٢] واستولى على حلب وشيزر ثم حمص ، ونهب هذه المدينة وأحرقها . وأخيراً إستولى عليها دوق إنطاكية البيزنطي سنة (١٠٠٢ م - ٣٨٨ ﻫ) ، والتجأ أهلها إلى كنيسة مار قسطنطين ، فأحرقها البيزنطيون بمن فيها . وكانت هذه المصائب التي منيت بها حمص سبباً في حرمانها من معابدها وقصورها الفخمة ، وضربة شديدة وجهت اليها . وقد أشار المقدسي وابن حوقل الى انحطاطها بعد الكوارث المذكورة ، وفي الواقع أنها لم تستطع النهوض الا بعد مدة طويلة من عثرتها .

وكان الحمدانيون كما ذكرنا يجعلون على حمص ولاتهم . ومن هؤلاء الشاعر المشهور أبو فراس علي الحمداني الذي تولى حكمها مرتين ، وانتزعها منه في المرة الثانية سعد الدولة بن سيف الدولة . وفي سنة (٣٦٧ ﻫ) ، منحها هذا الأخير إلى قائده (بكجور) الذي خان مولاه بعد مدة من توليته ، واتصل بالفاطميين الذين بدأوا يلعبون دوراً هاماً في سورية آنئذ ، وحارب سعد الدولة ، ففشل وقتل في الحروب .

وقد ظلت في حمص إلى فاتحة القرن العشرين مئذنة جميلة مقطومة من عهد الوالي بكجور وكانت دون شك جزءاً من جامع أزيل قبلها بزمن طويل [٣] . واشتهرت في حديث علماء الآثار عنها ، بجمالها ، وما كان عليها من كتابتين كوفيتين نفيستين [٤] . ومن المؤسف أن بلدية حمص هدمتها سنة (١٩١٢) .

---

(١) المصدر الأجنبي السابق ، الصفحة (٤٧٣) ، ابن القلانسي ، ص : ١٢ .
(٢) المصدر الأجنبي السابق ، الصفحة (٤٨١) ابن القلانسي ، ص : ٤٣ .
(٣) انظر الصفحة (١٦٦) من كتاب فان برخم وفاتيو المتقدم الذكر .
(٤) وكانت الكتابة الأولى بالخط الكوفي البارز على صفحة لوح حجري ، وتتألف من سطرين ، فيهما ما يلي : « بسم الله .... سلام على آل حسين الأمير أبو الفوارس بكجور السيفي » ، انظر الصفحة (١٣٩) من كتاب :
Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe , T. 5 . No 1893 .
أما الكتابة الثانية فقد كانت أيضاً على المئذنة نفسها في لوح حجري ، وبالخط الكوفي الصغير ، وعلى ثلاثة أسطر ، هي : « بسم الله .... أمر ببناء هذه المئذنة الأمير أبو الفوارس بكجور السيفي » ، انظر المصدر السابق الصفحة (١٤٠) ، رقم ١٨٩٩ .

وزالت دولة الحمدانيين ، ومرت على حمص فترة من الزمن ، لم يتمكن الفاطميون خلالها من الهيمنة على سورية ، وقام أمراء البادية العرب يتقاسمون مدنها ، وآل أمر حمص الى صالح بن مرداس أمير بني كلاب ، وإلى ورثته من بعده . وأخيراً تسلط عليها سنة (١٠٨٦ م - ٤٧٥ هـ) أمير عربي ، هو خلف بن ملاعب الذي اعترف بسلطة الخليفة الفاطمي في القاهرة . فما كان من مليكشاه السلطان السلجوقي المشهور إلا أن أغرى به الأتابكة الشاميين الذين استخلصوا المدن السورية من الامراء العرب الآخرين أمثال خلف ، فحوصر هذا الاخير سنة (٤٨٣ هـ) ، ونقل في قفص إلى أصفهان عاصمة السلجوقيين ، ومنحت حمص من بعده إلى السلجوقي تاج الدولة تتش . ثم ورثها عنه ابنه رضوان الذي ولي أيضاً حكم مدينة حلب . وأعطاها رضوان إلى حمية جناح الدولة الذي قتله الاسماعيليون سنة (٤٩١ هـ) .

وفي هذا الزمن نشبت الحروب الصليبية فلاقت منها حمص أشد ما لاقته من الحروب الحمدانية - البيزنطية . وتقدمت الحملة الصليبية الاولى ، بعد استيلائها على انطاكية ، واستباحتها مدينة معرة النعمان ، إلى الجنوب قاصدة بيت المقدس . وتحصنت حمص وراء أسوارها ، ولم يستطع المغيرون أن ينالوا شيئاً منها . وقد تولى شؤونها في هذه الحقبة قراجة مملوك مليكشاه ، الذي مات سنة (٥٠٦ هـ) ، ثم ابنه قرخان الذي توفي سنة (٥٢٣ هـ) . ولما سطع نجم عماد الدين زنكي أتابك الموصل المشهور ، أدرك هذا المحارب الممتاز أهمية حمص الستراتيجية في معارك ضارية فرضها على الدويلات الصليبية التي تمكنت في القدس ، وطرابلس وإنطاكية والرها ، فامتلك حمص بعد أن أرضى ورثة أميرها ، بمنحهم امارتي تدمر والرحبة بدلاً عنها . ثم أورثها الى ابنه نور الدين محمود ، وكانت قد تضررت من زلزال سنة (٥٥٢ هـ) ، الذي خرب عدداً من المدن السورية الاخرى ، وقام نور الدين بإصلاح ما استطاع إصلاحه من أبنيتها المتهدمة ، ثم خلفها من بعده إلى إبنه اسماعيل . ثم انتهت إلى أسد الدين شيركوه الذي قصد مصر مع قريبه صلاح الدين الايوبي لمحاربة الافرنج .

وتولى صلاح الدين قيادة الحروب ضد الصليبيين ، ووضع يده على حمص سنة (٥٧٠ هـ) ، ومنحها بعد أربع سنوات إلى محمد بن شيركوه . وفي عهد ابن هذا الاخير أسد الدين شيركوه الثاني ، وخاصة في سنة (٦٠٤ هـ) ، ثم في عهد ابن هذا ابراهيم ، اشتدت عليها وطأة الصليبيين

البروفانساليين المتمكنين في طرابلس ، ذاقت كثيراً من المصاعب بسبب إغارات فرسانهم الإسبتاريين (خدمة المستشفى) المتحصنين بحصن الاكراد (قلعة الحصن) ، والذين كانوا يهاجمونها الفينة بعد الفينة ، ويخربون ضواحيها ، ويتلفون مزارعها . إلا أنها صمدت ، ودفعت كل الحملات التي شنت عليها ، وتشرفت أنها كانت مركزاً هاماً من مراكز الجهاد الممتدة على طول خط داخلي في سورية الداخلية ، ماراً على حلب ، وشيزر ، وحماه ، وحمص ، ودمشق ، وبصرى ، وصلخد وغيرها .

وتعاقب عليها خمسة ملوك من الأيوبيين مدة قرن من الزمن ، قاموا بأعباء الدفاع عنها ، ودعموا أسوارها ، وأصلحوا قلعتها . ولا بد أن نتوقف قليلاً هنا لوصف ما كانت عليه تلك الأسوار ، وهذه القلعة . ويقول في ذلك ابن جبير في القرن السادس الهجري أو الثالث عشر الميلادي في رحلته المشهورة[١] : « وأسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم ، وأبوابها أبواب حديد ، سامية الإشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الأطلال والأناقة ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة . وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء ، خلقة الارجاء ملفقة البناء ، لا إشراق لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنَفَاقها . وما ظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره ، ويحرق إذا يطير شراره ، ويتمهد إذا شاء كل يوم مغاره » .

ويشير هذا الوصف الكالح إلى ما أصاب مدينة حمص من جراء قراعها للصليبيين ، من تعطل الإزدهار ، واختفاء ما كانت عليه من ثراء ، كما يشير الى تضحيات أهلها في دعم جهازها الدفاعي الذي سمح لهم بالوقوف أمام العدو الغاشم . وكم نأسف على زوال أسوار حمص وقلعتها التي كانت ترمز إلى تلك البطولات . والظاهر أن الاسوار ظلت سليمة إلى ما قبل قرن حتى حانت سنة (٨٥٠ م - ١٢٨٧ هـ) ، وألغت الدولة العثمانية ضريبة المكوس ، ففتحت أبواب حمص ، وانقطعت العناية بها ، وجعلت الاسوار تنهار تدريجياً ، وبدأت الابواب تزول الواحد بعد الآخر . ولم ينته إلى زماننا إلا آثار تكاد لا تفسر من الاسوار في شمالي

---

(١) رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية ، طبع مصر ، صفحة ٢٤٦ .

المنصور الذي كانت عليه كتابة تشير إلى أن بانيه هو الملك المنصور المدينة وشرقها ، وباب المسدود (١) الذي كانت عليه كتابة تشير إلى أن بانيه هو الملك المنصور ابراهيم ابن شيركوه بن محمد (٢) . وما يزال قائماً من هذا الباب برجان ، ويرى فوقهما المزاغل التي كان الرماة حماة المدينة يستخدمونها في دفاعهم عنها . ويظهر أن الاحجار التي بني منها هذا الباب استخدمت بعد انتزاعها من أبنية عهدها أقدم من هذا العهد . أما الابواب الاخرى فلم تصلنا إلا أسماؤها ك : « باب هود ، وباب التركمان ، وباب السباع ، وباب الدريب ، وباب السوق ، وباب تدمر » الواقع في الزاوية الشرقية الجنوبية ، وما تزال آثار برجي هذا الباب وجزء من الخندق الذي كان يحيط به ظاهرة حتى اليوم .

ولدينا في كتاب : « الرحلة الشائقة إلى مصر وسورية » للرحالة كساس ، صورة تمثل قلعة المدينة دون أسوارها (٣) . وتبدو القلعة المذكورة في هذه الصورة على شاكلة القلاع الايوبية والمملوكية المعروفة التي بنيت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، والتي لدينا نماذج متعددة منها كقلاع حلب وحماة وشيزر ودمشق والنمرود وغيرها ، وقد ظهرت أبراجها المربعة فوق منحدرها الذي يحيط به الخندق على أشكال منشآت قلعة حلب . ولا شك أن هذه القلعة كانت كمدينة ملكية يقيم فيها سلطان حمص ، وترتفع على ما حولها بنحو (٣٢ متراً) .

---

(١) انظر الصفحة (١٦٥) من كتاب فان برخم وفاتيو المتقدم الذكر .

(٢) نص الكتابة كما يلي على ستة أسطر بالخط النسخي الجميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بعمارة هذا الباب ، مولانا السلطان الملك المنصور السيد الأجل العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور سلطان الاسلام والمسلمين محي العدل في العالمين شرف الملوك والسلاطين ناصر أمير المؤمنين ابي طاهر ابراهيم بن شيركوه بن محمد بنظر العبد الفقير إلى عفو ربه الغفور زين الدين يعقوب بن بركسفر (؟) المجاهدي المنصوري في شهر ذي الحجة سنة أحد وأربعين وستمائة » . انظر الصفحة (١٥١) من الجزء (٢) من : Repertoire Chronologique D'Epigraphie Arabe .

(٣) هذا الكتاب من سنة (١٧٨٥) وقد تقدم ذكره ، انظر فيه اللوح رقم (١٠) .

وأكثر من عني بتحصينها الملك المجاهد شيركوه بن محمد الذي ترك فيها كتابتين الاولى من سنة (أربع وتسعين وخمسمائة) والثانية من سنة (تسع وتسعين وخمسمائة)[1].

وتشرف قلعة حمص على سهلها من أعلى تل جزء منه طبيعي ، وجزء آخر اصطناعي ، وتتخذ شكلاً مستديراً في ذروته ، ويبلغ قطرها نحو (٢٧٥ متراً) ، وتحاط كما ذكرنا بمنحدر ينحط بسرعة نحو خندق كان يحدق به وقد ملىء اليوم بالانقاض . وزالت كل منشآت القلعة الداخلية ولم يبق شيء منها[2] . أما أسوارها وأبراجها فزالت أيضاً ولم يبق منها إلا الشمالي الذي يحوي كما أسلفنا الكتابتين الاثريتين . وقد انصرفت المديرية العامة للآثار والمتاحف الى ترميم هذا البرج الشمالي ، ففك الملحق الفني السيد « زكي الامير » أجزاءه وأعاد تركيبها في سنة (١٩٥٢) بعد تقويتها وتدعيمها ، واكتشف ما يحيط بالبرج المذكور من سور ، كما اكتشف تحته باباً ومدخلاً كان ينفذ منه إلى القلعة . ولعل هذا الباب كان باب القلعة الرئيسي القديم . وهو يشبه مع مدخله في تنظيمها مداخل القلاع الايوبية التي يعد مدخل قلعة حلب أكمل نموذج منها . وفي الواقع يؤدي الباب الخارجي منه المفتوح جهة الشرق ، الى دهليز ، ثم ينعطف الى الجنوب حيث يقوم باب آخر يؤدي إلى داخل القلعة . وفي غربي الدهليز باب ثالث أمامه عدة درجات والظاهر أن هذا الاخير كان يستعمل من قبل المدافعين عن القلعة لمفاجأة المهاجمين جانبياً ، وتخفيف اندفاعهم نحو مدخل الباب الجنوبي .

---

(١) تقع الكتابة الاولى في أعلى البرج الشمالي في منطقة سداسية الشكل على اربعة سطور محفورة بالخط النسخي الأيوبي الجميل ، وهي كما يلي : « أمر بعمارته شيركوه بن محمد في سنة أربعة وتسعين وخمسمائة » . أما الكتابة الثانية فهي كما يلي : « بسم الله .... أمر بعمارة هذا البرج الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه ناصر أمير المؤمنين أعز الله أنصاره تولى عبده موافق في سنة تسع (وتسعين) وخمسمائة » . انظر الصفحتين (٢١٤) و (٢٤٤) من الجزء (٩) من :

Repertoire Chronologiqua D'Epigraphie Arabe .

(٢) انظر الصفحة (١٦٥) من كتاب فان برخم وفاتيو المتقدم الذكر .

وأظهرت لنا تحرياتنا خلال السنة المذكورة في ذروة القلعة الى جنوبي خزان الماء الذي أقامته بلدية المدينة هناك وعلى عمق (خمسة أمتار) من سوية أرض القلعة الحالية ، وجود صهريج عميق جداً يتجاوز عمقه (٢٧ متراً) . وهو من أعجب المنشآت الاثرية الايوبية التي انتهت الينا ، ويدل تصميمه وتنفيذه على براعة معماريه لا تجارى .

ويتألف من بناء يتغير تخطيطه ، في كل من المرحلتين اللتين توبع تشييده عليهما . فبناء المرحلة العلوية التي هي بالطبع أحدث عهداً يتألف من مربعين يبلغ ضلع كل منهما (٥ و ٥ أمتار) ، وهما متلاصقان ومتصلان ببعضهما . ويتألف الغربي منهما من درج لولبي بنيت جدرانه من الآجر ، ودرجاته من الحجر البازلتي الاسود ، وهو في هذه المرحلة على ثلاث طوابق ويغير الدرج اتجاهه في كل طابق أربع مرات ، وفي المرة الأولى خمس درجات وفي الثانية ست وهكذا على التوالي . أما المربع الشرقي فيتألف فقط من طابقين . على شكل بئرين أسطوانتين ، العلوية منهما مفتوحة ولها فوهة مجعولة في سقف من الآجر ومتصلة بالخارج ، وتتصل عن طريق فتحة سفلية بسقف البئر الثانية ، وارتفاع الأولى (٦ و ٧ أمتار) ، وارتفاع الثانية (٩,١٥) أمتار . والبئران تتصلان بفتحات ثلاث جانبية (واحدة في البئر العلوية ، واثنتان في البئر السفلية) هي أشبه بالنوافذ يطل منها على أقسام الادراج التي تقدم وصفها (انظر اللوح المرفق) .

ويتغير تخطيط الدرج والصهريج في المرحلة الثانية التي هي السفلية ، فيقتصر البناء تحت مربع الصهريج فقط ، ويندمج في هذا البناء الدرج والبئر عن طريق الاقتصار على البناء في المربع الشرقي وتضييق قطر البئر إلى ثلث ما كانت عليه في المرحلة الاولى . وتمتد هذه البئر السفلية على طابق واحد ارتفاعه (٩,١٥ أمتار) ، وتتصل عن طريق فوهة بالبئر الثانية التي تقدم ذكرها . أما الدرج فهو في هذه المرحلة على طابقين فقط ، ويدور في المربع الشرقي حول البئر بمقطع ضيق . وينتهي الدرج والبئر الموصوفان بطبقة من الأتربة تعلوها طبقة من الماء . ولم نستطع متابعة تنظيف الادراج والآبار لوجود طبقة الماء المذكورة التي تحاذي تقريباً سوية أرض المدينة الحالية فيما يجاور التل . ويخيل إلينا أن الادراج المشار لا بد أنها وأن كانت تنتهي بنفق سري يصل القلعة بضاحية

المدينة كان يستخدمه المدافعون عنها في أوقات الشدة .

ثم حكم المماليك حمص . وتعرضت المدينة في عهدهم الى غزو جموع التتار التي تدفقت على البلاد السورية . وفي سنة (٦٥٨ ﻫ) استطاع أمير حمص (الأشرف) بمساعدة (المنصور) صاحب حماة ، ايقاع الهزيمة بجيش من جيوشهم . وقام الملك الظاهر (بيبرس) بعد انتصاره عليهم في عين جالوت يلاحق فلولهم ، ويطردهم من سورية . كما انصرف إلى مكافحة الصليبيين ، وتهديم دويلاتهم وانتزاع المعاقل والحصون المتبقية في أيديهم . وكان يمر بحمص أثناء إغارته على المدن الكيليكية ، ودويلة انطاكية النورماندية ، وحصون الاكراد والمرقب وعكار وطرابلس البروفانسالية .

وقد أصلح سنة (٦٦٤ ﻫ) قبر خالد بن الوليد ، ووقف وقفاً على من هو راتب فيه من إمام ومؤذن وغير ذلك (١) ، ولم يكن قبر خالد ، آنذاك إلا مقاماً من المقامات التي كثرت في حمص في ذلك العصر (٢) . ولم تذكر أوصاف عن بناء هذا القبر ، وأكبر الظن أنه كان كالمدارس والمدافن الايوبية والمملوكية التي نشأت آنذاك .

وكان تجديد الملك الظاهر بيبرس لمقام خالد أثناء عبوره حمص للأغارة على مدينة

---

(١) انظر الصفحة (١٨٠) من الجزء السابع من النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين يوسف ابن تغري بردي الأتابكي .

(٢) ذكر ياقوت المتوفي سنة (٦٢٦ ﻫ) في معجم البلدان مادة (حمص) ، الجزأين الثالث والرابع ، من الطبعة الأولى ص : (٣٤٠ ـ ٣٤١) ، عدداً من الأضرحة والقبور المنسوبة لبعض الصحابة وعظماء المسلمين في حمص كقبر خالد بن الوليد وإلى جواره قبر عيّاض بن غنم القرشي ، وقبر زوجة خالد بن الوليد وقبر ابنه عبد الرحمن . ثم ذكر انه قيل إن في حمص قبر عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وقبر سفينة مولى الرسول ، وقبر قنبر مولى علي بن أبي طالب ، وقبر جعفر بن أبي طالب ، ومشهد أبي الدرداء ، وقبر أبي ذر . وذكر فيها أيضاً قبور يونان والحارث بن عطيفة الكندي ، وخالد الأزرق الفاخري والحجاج بن عامر وكعب وغيرهم ....

سيس وما حولها في كيليكيا (١) . ويذكر ابن تغري بردي (٢) ، أن الملك الظاهر نزل بصفد فأقبلت عليه الوفود والرسل ، وبينها رسل صاحب سيس ، فلم يقبل هدايا هؤلاء ولم يستمع إلى رسالتهم ، ثم رحل الى دمشق ، ومنها أمر عساكره بالتقدم إلى بلاد سيس للاغارة عليها . والظاهر أن حملة بيبرس هذه على سيس كانت انتقاما من صاحبها الأرمني الذي أغار على العمق والمعرة وسرمين سنة (٦٦١ هـ) . وأخذ المسلمون سيس وهدموها ، ونهبوا ما لا يحصى من أموالها وأرزاقها ، وأسروا وقتلوا عدداً كبيراً من جنودها . وكان فيمن أسر ابن صاحب سيس وابن اخته وجماعة من أكابرهم ، ثم عادوا إلى دمشق .

وتشير إلى حادثة مرور الملك الظاهر بيبرس بحمص أثناء زحفه على سيس كتابتان أثريتان هامتان ما تزالان محفوظتين في جانب مقام خالد بن الوليد في مسجده الحالي ، وهما مكتوبتان بخط نسخي جميل (٤) .

---

(١) (سيس) عاصمة أرمينيا الصغرى (كيليكيا) ، وكانت مدينة كبيرة ذات أسوار ، وتقع على جبل ، وتحيط بها بساتين ونهر صغير (أبو الفداء ، ص : ٢٥٧) وهي الآن بلدة صغيرة جنوبي الأناضول .

(٢) في الصفحتين (١٣٩ ـ ١٤٠) من النجوم الزاهرة ... الجزء السابع .

(٣) انظر : محمد كرد علي ، خطط الشام ، الجزء (٢) ، الصفحة ١١٩ .

(٤) انظر الصفحتين (١٠٤ و ١٠٥) من الجزء (١٢) من الـ Repertoire الذى أشرنا إليه مراراً . والكتابتان هما كما يلي :

الكتابة الاولى على باب خشبي ، وهي مؤلفة من خمسة أسطر من الخط النسخي المملوكي ، ونصها :

« بسم الله .... أمر بانشائه على حرم قربة سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين محي العدل في العالمين مالك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذى الحجة سنة أربعة وستين وستمائة » .

والكتابة الثانية على حشوة خشبية ، وهي مؤلفة من خمسة اسطر من الخط النسخي المملوكي الجميل ونصها :

« بسم الله ... أمر بانشائه على ضريح سيف الله وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين محي العدل في العالمين ملك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره على حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذى الحجة سنة اربعة وستين وستمائة »

وقد جدد الملك الظاهر بيبرس أيضاً في سنة (٦٧١ هـ) بعض أقسام الجامع الكبير في حمص الذي تحدثنا عنه سابقاً ، وتشير إلى هذا التجديد كتابة أثرية وجدت منقوشة على لوح حجري في الجامع المذكور (١) . ومما يجب ذكره أيضا في هذا المقام أن الخطبة كانت تقام لبيبرس في حمص ، ويظن أن ذلك في هذا الجامع .

وفي مقام خالد بن الوليد كتابة أثرية على لوح خشبي تذكر بانتصار آخر أحرزه المماليك على الصليبيين في عهـد السلطان الملك الأشرف خليل بن السلطان سيف الدين قلاوون سنة (٦٩١ هـ) (٢) . ويذكر جمال الدين يوسف بن تغري بردي (٣) ، أن هذا الانتصار كان سنة (٦٩٠ هـ) لما توجه الملك الأشرف بعساكره من دمشق إلى حلب ، ونزل على قلعة الروم (٤) ، وحاصرها إلى أن افتتحها بالسيف عنوة ، بعد أن خربها في يوم السبت

---

(١) نص هذه الكتابة كما يلي :
« بسم الله ... قد تجدد هذا الحائط بأم حضرة مولانا السلطان الملك الظاهر بمناظرة الحج عبد المجيد.. قاضي قضاة الشام في سنة ستمائة واحـدى وسبعين للهجرة » ، انظر الصحيفة (١٧٦) من الجزء (١٢) من الـ Répertoire المشار إليه .

(٢) تتألف هذه الكتابه من ثمانية أسطر مدرجة على لوح خشبي بالخط النسخي ، وهي كما يلي :
« بسم الله ... جدد هذا الشباك المبارك في هذا المشهد الخالدي رضي الله عنه في أيام مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف العادل المجاهد المرابط المثاغر المظفر المنصور الهمام مالك الأنام صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ناصر الملة المحمدية محي الدولة العباسية ملك البحرين صاحب القبلتين ووارث الملك سلطان العرب والعجم والترك مالك رقاب الأمم جامع فضيلتي العلم والسيف أبي الفتح خليل خلد الله سلطانه وأفاض عليه الرعاية كافة عدله واحسانه ابن مولانا السلطان الشهيد المنصور سيف الدنيا والدين قلاون قدّس الله روحه ونوّر ضريحه وذلك عند توجهه إلى فتح قلعه الروم سنة احدى وتسعين وستمائة » .

(٣) الصفحة (١٣) ، الجزء الثامن ، من النجوم الزاهرة ...

(٤) تقع قلعة الروم إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب ، وعلى مرحلة من نهر الفرات .

حادي عشر شهر رجب ، وأنه عاد فعمرها ، وأنه احتفى بظفره هذا احتفاءاً عظيماً في دمشق والقاهرة .

ولزام علينا أن نشير أيضاً إلى تابوت أثري نفيس جداً من الخشب المحفور المزدان بالألوان . وكان يحيط بقبر خالد بن الوليد . وقد أصلح هذا التابوت مؤخراً في المعمل الفني التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف ، وأنقذ من التلف . ويتألف شكله من متوازي المستطيلات . وله قاعدة سفلية يقوم فوقها صف من ستة محاريب ضامرة في كل من الجانبين العريضين ، وثلاثة في كل من الجانبين الضيقين . وكل هذه المحاريب مملوءة بالزخارف الهندسية والنباتية البارزة . ثم يأتي فوقها صف من الزخارف الكتابية الكوفية وفوق هذه صف آخر من الزخارف الكتابية النسخية (١) .

وهكذا فإن حمص تأثرت تأثراً بالغاً من الحروب الحمدانية - البيزنطية والحروب الصليبية ، وزالت أهميتها التي كانت لها سابقاً ، وما عادت إلا مدينة صغيرة في وسط سورية . وصار يحكمها ولاة يرتبطون تارة بدمشق وتارة بحماة . ولما أصبحت سورية ولاية عثمانية سنة (١٥١٦ م) ، جعلت حمص لواءً من الألوية الخمسة المرتبطة بطرابلس ، وأصابها من توقف الحياة المدنية والعمرانية ما أصاب أخواتها المدن السورية الأخرى . وفي القرن التاسع عشر الميلادي استولى عليها ابراهيم باشا ، وبقيت تحت حكم محمد علي بين سنين (١٨٣١ - ١٨٤٠ م) ، ثم عادت بعد ذلك إلى حكم الدولة العثمانية . ولم يعد الإزدهار إليها إلا لما نالت البلاد السورية استقلالها ، وكان ذلك عقب استعادتها لأهميتها الزراعية والصناعية والتجارية .

---

(١) ينشر الأستاذ الزميل أبو الفرج العش محافظ المتحف الوطني بدمشق مقالاً قيماً عن هذا التابوت في هذا العدد من مجلة الحوليات الأثرية السورية ، فنحيل القارىء إليه .

والأبنية الأثرية المتبقية في مدينة حمص من هـذه العصور قليلة . وقد زاد هذا الفقر أن السلطات البلدية ، فيها ، لم تستطع أن تحافظ على العدد القليل الذي وصل إلينا منها . وتركت معاول التهديم والتخريب تجهز عليها ، وكان شأنها في ذلك شأنها في إزالة (الصومعة) ومئذنة بكجور وأسوار المدينة وقلعتها .

وفي حمص الحالية ثلاثون جامعاً انتهت الينا من العصور المتأخرة . وأكثر هذه المساجد ذات مبان بسيطة . وفي حمص ثلاث طواحين قديمة قائمة على نهر العاصي ، وهي طواحين السبعة والحصوبة والمياس . وتوجد في الأولى كتابة يتعذر رؤيتها في الوقت الحاضر لانحجابها وراء باب حديدي جعل أمامها ، ويقال إنها من سنة (٨٢٤ هـ) (١) ، وكذلك توجد كتابة على لوح من الرخام بالخط النسخي على باب الطاحون الثانية وقد ذكر فيها سنة (٩٢٢ هـ) (٢) . أما الطاحون الثالثة فليس فيها أية كتابة قديمة ، إلا أن بناءها يشبه بنـاءي الطاحونتين المتقدمتين ، ويمكن أن تكون إما من القرن التاسع أو العاشر الميلادي .

ومن أهم أبنية حمص الأثرية التكية المولوية التي كانت قائمة إلى القرب من السرايا القديمة (٣) . ومما نأسف له أن بلدية المدينة قامت مؤخراً بهدمها لشق أحد الشوارع مكانها ، وادعت أنها انهارت في ليلة عاصفة ، وأرسلت إلى المتحف الوطني بدمشق أحجارها المكتوبة مشفوقة ببالغ أساها ، وجميل تعازيها (٤) . وكان مدخل التكية المذكورة مزيناً بالدعائم المخددة

---

(١) سوبرنهايم ، موسوعة الاسلام ، مادة حمص

(٢) » » » » » » .

(٣) انظر فان برخم وفاتيو ، صفحة (١٦٠) .

(٤) بين هذه الاحجار لوح مولف من قطعتين كتب عليه بالخط الثلث على سطرين ما يلي : « أنشأ هذه التربة المباركة العبد الفقير الحقير الذليل الراجي عفو ربه القدير أحمد بن اسمعيل الكوجكي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ولمن ترحم عنه ودعا له بالمغفرة آمين بتاريخ شهر الله المحرم سنة احدى واربعين وثمانماية » . انظر الصفحة (١٩) ، اللوح الصورة (٤) L. A Mayer, Saracenic, Heraldry . ومنها أيضاً لوح ثان مؤلف من قطعة واحدة عليه بالخط النسخي ما يلي على أربعة أسطر :

« بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا السبيل المبارك العبد الفقير الى الله تعالى الراجي عفو ربه وغفر (انه) الى الله تعالى أحمد بن اسماعيل الكوجكي بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة ثلاثين وثمانماية »

إنني مدين بقراءة الكتابتين المتقدمتين الى الاستاذ ابو الفرج العش محافظ المتحف الوطني فله كل شكر .

على شاكلة الأبنية اليونانية القديمة ، أما بناؤها فتعلوه قبة كبيرة . وفي القاعة التي تعلوها هذه القبة كان يقوم ضريح الصحابي عبد الرحمن بن عوف ، وفي قربه ضريحان لرجلين من المولوية مشايخ التكية المذكورة [١].

ومن جملة مباني حمص الأثرية [١] جامع أبي لبادة . ويظهر أن بناءه الحالي قد جدد ، وهو هزيل ، ولا تتبدى فيه أية ميزة معمارية . وله مئذنة مربعة استعملت في بنائها أحجار قديمة بينها بقجة من المشربيات المنظمة على شكل نجمة في داخلها كتابة نسخية ونظن أنها ترقى الى عصر المماليك . ثم جامع البازرباشي ، وبناؤه بسيط ، وعلى بابه كتابة نسخية تذكر أن بناءه كان سنة (١٠٥٣ هـ) ، وعلى باب حرمه كتابة أخرى تجعل هذا البناء من سنة (١٠٥٤ هـ) . ولا يوجد داخل الحرم ما يسترعي الأنظار سوى المنبر المزدان بزخارف رخامية منزلة . وكذلك الجامع العمري القائم في حي التركمان الذي يظهر أن بناءه رمم مرات متعددة . وقد بقي في مئذنته المربعة مدماك سفلي قديم من أحجار كبيرة ، أما بقية المداميك فهي من أحجار مختلفة بعضها يحمل بعض الكلمات اليونانية . أما حرمه فإن له سقفاً كالمهد ، ويرتفع على عدد من السواري التي تحمل تيجاناً مختلفة الأشكال بعضها من الطراز الكورنثي . وباعتقادنا أن البناء الأول لهذا الجامع كان قديماً جداً . ولا نستغرب أن يكون أصله يرقى إلى العصر الأموي كما يشير أسمه .

---

(١) انني مدين بالمعلومات الواردة فيما يلي عن المباني الأثرية إلى الأستاذ عبد القادر الريحاوي المفتش الأول في المديرية العامة للآثار والمتاحف ، الذى أعارني ما جمعه من معلومات وملاحظات قيمة عن هذه المباني ، فله كل الشكر .

ولم يبق من قبور الصالحين التي أشرنا إليها سابقاً (١) ، إلا مزار عمر بن عبد العزيز الواقع شرقي المدينة في منطقة تعرف باسم دير سمعان . والقبر حديث ، وليس فيه ما يشير إلى صحة نسبته إلى صاحبه ، ومزار رابعة العدوية القائم في حي بني السباعي ، وهو ذو بناء عادي دون أية صفة أثرية ، ثم مزار أبي ذر الغفاري الواقع في باب تدمر ، وهو حديث أيضاً ، ومزار سعد بن أبي وقاص وهو في جامع حديث البناء أيضاً ، ومقام الخضر في باب السباع ، وليس فيه ما يشير إلى أن الثاوي فيه المنصور بن الملك المجاهد .

وفي حمص نحو عشرة كنائس منها القديم ككنيسة مار إليان للروم الأرثوذكس في حي باب الدريب وكنيسة الاربعين ، وكنيسة السريان القدماء ، وكنيسة الكاثوليك وكنيسة البروتستانت وكلها في حي جمال الدين .

وأحدث المباني الأثرية في حمص مسجد خالد بن الوليد الذي بني مكان المقام المملوكي الذي تقدم ذكره . وقد رأى والي الشام ناظم باشا في عهد السلطان عبد الحميد أن يجدده ، فهدم الجامع القديم ، وأقام مسجداً حديثاً بدلاً عنه فأتى بقببه البيضاء المحيطة بالقبة الكبرى ومئذنتيه الرشيقتين على نسق جوامع استانبول(٢) . وانتهى من بناء الجامع المذكور في سنة (١٩١٢ م) . وله حرم مربع الشكل تقريبا (٣٠٫٥ × ٣٠٫٥ م) ، فوقه قبة قطرها (١٢ متراً) ، وترتفع إلى (٣٠ متراً) وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب ، وفي الزاوية الشمالية الغربية ضريح خالد بن الوليد وفي زاوية هذا الضريح ضريح صغير لعبد الرحمن بن خالد ، وفي الزاوية الشمالية الغربية ضريح ثالث لعبد الله بن عمر بن الخطاب كما قيل . وصحن الجامع واسع ، وأبعاده : (٣٦ × ٤٧ متراً) .

---

(١) انظر الصفحة (٢٩) من هذا البحث .

(٢) أحمد وصفي زكريا ، جولة أثرية ، الصفحة ٣٥٢ ، وما بعدها . . . .

ويقول ابن الشحنة أنه كان يوجد في قلعة حمص ، مصحف مكتوب بالخط الكوفي على رق الغزال في مجلدين ضخمين ، وقد نقل المصحف المذكور بعد هدم القلعة الى هذا الجامع ، وبقي فيه إلى السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى . حتى حمله أحمد جمال باشا معه إلى القسطنطينية مع ما نهبه من ثروات بلاد الشام (١)

للدكتور سليم عادل عبد الحق

---

(١) أحمد وصفي زكريا ، جولة أثريه ، الصفحة (٣٥٥)